

الموت فى مضيق جبل طارق

من

يطلق هذه الأنعام الحزينة التى أسمع من بعيد؟.. أمن هؤلاء الراحلين عند الحدود؟ إنهم يزحفون واقفين، وزحفهم يذلهم حتى العظام، الذين كان يفترض بهم البقاء هاجروا وبدأت رحلتهم قبل الرحيل وأصبحوا أسرى المنفى. الراحلون يحملون معهم فى أكياس صغيرة تراب الوطن لزرع النعناع فى المنافى. «الحكواتى المغربى محمد شكرى»..

«براهيم»، تركته أمه فى محطة قطارات مراكش، لكيلا تراه يموت جوعاً. تعاطى ابن القطار «براهيم» السرقة وعمل حمالاً، وبعد أن تعلم تاريخ مراكش عمل دليلاً سياحياً. استمع «براهيم» إلى حكواتى ساحة جامع الفنا يحكى عن الحلم الأوروبى وعن الذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا. الحلم بأوروبا قاد «براهيم» إلى «طنجة»، وهناك عبر جبل طارق مختبئاً داخل سفينة وسط البضائع. فى فرنسا، أدرك «براهيم» الذى نشأ فى قاع مراكش أنه سيبقى فى قاع باريس متوارياً عن عيون الشرطة المتربصة بأمثاله لترحيلهم إلى بلادهم. الحكواتى الأسمى العجوز فى ساحة جامع الفنا لم يقرأ رواية «اقتسام العالم»، التى كتبها باللغة الفرنسية مواطنه من بلدة «تازة» القريبة من مدينة «فاس» «كبير مصطفى». وما يزال الحكواتى يحكى عن الحلم الأوروبى وعن

الذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا.
تحكى هانيا «بنت الريح» سيرة حياتها، فى الجزء الثانى من
ثلاثية الراوى المغربى «كبير مصطفى» (حسب الراوى على نجيب
إبراهيم الأكاديمى السورى المقيم فى فرنسا). تفتح «هانيا» «بنت أحمد
ابن عبد الله» عينيها على الحياة فى بيت سرى تقوم عليه «الغول» المدعوة
«الحاجة فتنة». وعندما استشعرت «هانيا» هول ما يجرى من فظائع
فى الظلمة القابعة وراء البريق الخادع، ورأت أمام عينيها كيف تباع
الأعضاء البشرية وتشترى عن طريق الطبيب اللامرئى «سى محمد»،
وكيف يتجر بأجساد النساء وتبنى من وراء ذلك القصور، وتقتنى
أعاجيب ألف ليلة وليلة، قتلها أعوان «الغول».

عن الراوى «على نجيب إبراهيم» الأكاديمى السورى المقيم فى
فرنسا، عن رواية باللغة الفرنسية «ورقة من زجاج»، هى الجزء
الأخير من ثلاثية الراوى المغربى «كبير مصطفى»، سعد البطل منقطع
الجدور الجاهل تاريخ ميلاده قطار الليل، وانزلق تحت مقعد، وراح
ينتظر الوصول إلى «طنجة»، المدينة البيضاء التى لم ير شيئا أبيض
فيها. وعندما أعيته الحيل فى متابعة السفر إلى الشمال الأوروبى
(هل استمع إلى حكواتى ساحة جامع الفنا يحكى عن الحلم الأوروبى
وعن الذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا؟) أدرك البطل
منقطع الجدور، أن «طنجة» هى قدره الذى لا مفر منه، فهام على
وجهه متنقلا بين حانة سليمان وعصابة الحاج محمد التى تسيطر على

أزقة طنجة. ورغم محاولته التشبث بانتقام ما حين عمل مدلكا للعجوز الاسبانية «هيرتادو» لم يزد إلا ضياعاً، إذ اتهم بقتل العجوز للاستيلاء على ثروتها، وصار لقمة سائغة للشرطة وملاحقاتهم الكابوسية، التي أجبرته على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

رحلة حزينة يقوم بها الشباب هرباً من بلادهم، يستقلون فيها قوارب الموت المطاطية سعياً وراء الحلم الأوروبى والذهب الذى يتدلى من أغصان الأشجار فى أوروبا.. وتنتهى الرحلة الحزينة بالبحر يبتلع القارب المطاطى وحمولته من الشباب ويلقى بجثثهم إلى شاطئ باتيرو الاسبانى الشهير باسم المقبرة الأوروبية.

الفيلم التسجيلى «الموت فى مضيق جبل طارق»، يصور وصول العامل المغربى «مصطفى» المهاجر فى إيطاليا إلى المقبرة الأوروبية، بحثاً عن جثة شقيقه الذى ابتلعه البحر ضمن من ابتلع ممن كانوا على متن القارب المطاطى المتجه إلى الشمال، والعودة بها إلى أمه الباكية المنتحبة التى تنتظر جثمان ولدها لتلقى عليه نظرة أخيرة قبل أن يواريه تراب الوطن، المغرب.

اقتربت عدسة كاميرا المخرج التسجيلى «يواكيم ديمر» من وجوه راهنت بحياتها على الوصول إلى الضفة الأخرى الشمالية، قبل أن تخسر رهانها وحياتها. اقتربت عدسة الكاميرا أيضاً من القليلين الذين عندما استشعروا أنهم كسبوا الرهان ولمسوا بأقدامهم رمال شاطئ «باتيرو» الاسبانى، وجدوا الشرطة الاسبانية فى انتظارهم لترحيلهم.

فى رواية «ورقة من زجاج» للراوى المغربى باللغة الفرنسية «كبير مصطفى»، هل كان يدرك بطلها منقطع الجذور، الجاهل تاريخ ميلاده، بعد وصوله «طنجة» المدينة البيضاء التى لم ير شيئاً أبيض فيها، وبعد أن أعيته الحيل فى السفر إلى الحلم الأوروبى، إنها هى ذاتها «طنجة» التى من شواطئها انطلقت سفن «طارق بن زياد» بجنود كان النصر حليفهم، ومن شواطئها أيضاً انطلق الرحالة المغربى «ابن بطوطة» فى رحلة بلغت ربع قرن، عاد بعدها ليموت فيها؟

لماذا أعداد المهاجرين إلى الخارج الأوروبى فى ازدياد على رغم الإجراءات الجائرة التى تتخذها الدول الأوروبية ضدهم؟.. لماذا الهجرة إلى الدول الأوروبية لها طابع الديمومة، وهى السمة التى تأكدت منذ عام ١٩٧٤ حيث تقلصت نزعة العودة إلى الوطن تدريجياً؟

يذكرنا تقرير للأستاذ الجامعى فى جامعة محمد الخامس بالرباط «عبدالله برادة» بأن تاريخ الهجرة المعاصرة يشير إلى أن الأوروبيين كانوا يمثلون حوالى نصف السكان فى الجزائر، وثالث السكان فى تونس، وربع السكان فى المغرب، وإلى أنه مع استقلال دول المغرب العربى تبعاً، ومع رحيل الأوروبيين، انعكست دورات الهجرة، وتزايد الطلب الجماعى على الأيدى العاملة المغاربية، التى كانت اقتصاديات أوروبا فى أمس الحاجة إليها بسبب انحسار معدلات المواليد فى أوروبا، وما أدى إليه من خلل فى الهياكل الاجتماعية والاقتصادية، كتزايد نسبة كبار السن، وتدهور العلاقة بين المتقاعدين وبين السكان

النشطين. والطلب على العمالة غير المؤهلة.

أوضح التقرير أنه وعلى مدى ١٥ سنة لجأت فرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا بانتظام وباستمرار إلى أبعد المناطق في المغرب وتونس بحثا عن رجال أشداء يتمتعون بالصحة والقوة وقادرين على القيام بأصعب الأعمال وأشقها، ومن ثم استقر ما بين ٣٠ ألفا إلى ٤٠ ألف مهاجر مغربي في أوروبا كل سنة، فضلا عن حوالي ١٥ ألفا من التونسيين. لكن فرنسا التي كانت حريصة على تنويع مصادر الهجرة لم تكن متحمسة للأيدي العاملة الجزائرية لأسباب سياسية.

إثر الصدمة النفطية الأولى اعتبارا من عام ١٩٧٤ راحت الدول الأوروبية تغلق حدودها تباعا في وجه المهاجرين إليها من المغرب العربي، ولجأت إلى بعض الأساليب التي تدفعهم للعودة إلى أوطانهم. وهكذا ظهرت أشكال جديدة من الهجرة الموسمية والمحدودة بفترات معينة، وبناء على طلب الدول الأوروبية، على رغم أن بعضها كان يتم بطريقة غير منظمة وتتولاها بعض الشركات السرية التي لا تخلو من النفوذ.

الإعلان المفاجئ من الجانب الأسباني عن اقتراح تسوية لوضعية العمال المهاجرين الأجانب غير الحاصلين على بطاقة إقامة، هل يعنى أن الوقت قد حان لرفع الظلم عن «عمال الظلام» المهاجرين غير الشرعيين في أسبانيا، بعد أن استنزفت قواهم وكلت سواعدهم دون مقابل مادي أو معنوي مُجَز؟

من جهة، يعد الإعلان في حد ذاته مناقضا لسياسة تناول ملف الهجرة التي اتبعتها حكومة «أزنا» الإسبانية السابقة، والتي طالما شددت على ضرورة مراقبة الحدود، ومن جهة أخرى قد يسهم التوجه الجديد لحكومة «ثاباتيرو» الإسبانية الجديدة في تشجيع وانتعاش المجالات التي ينفش بها التشغيل غير القانوني كالزراعة والبناء وغيرها. يؤكد تقرير نشرته مؤخرا صحيفة «ليكسبريس» أن تسوية وضع العامل المهاجر ستجبر أيضا المشغل على أداء المستحقات الاجتماعية وما يترتب عليها للعمال الأجانب الذين تقدرهم النقابات بما يزيد عن ٦٠ ألف عامل.

لا يزال مشروع القانون قيد النقاش بين حكومة «ثاباتيرو» والشركاء الاجتماعيين، ولم يقدم بعد في صيغته النهائية، لكن إعلانه قوبل بكثير من التحفظ في أوساط المعارضة الإسبانية التي ترى فيه تشجيعا غير مسئول للهجرة اللاشريعة. تؤكد النقابية «أنا ماريا كورال»: «لا يجب أن ندفن رءوسنا في الرمال، فالحقيقة واضحة. إذا كان الناس يقصدون إسبانيا بهذا الكم الهائل، فلأنه يسهل عليهم الحصول على عمل، ولو كان ذلك في إطار وضعية غير قانونية.

الغد - تنهى الصحيفة تقريرها - كفيل بإثبات ما إذا كان القانون الجديد سيتمكن حقا من تجاوز حدود النوايا الحسنة ليترجم إلى واقع فعلى يرد الاعتبار لعمال الظلام القادمين إلى إسبانيا للظفر بلقمة عيش من ناحية، ويخدم مصالح إسبانيا من ناحية أخرى.

الواقع يشهد حفل تدشين ثانى أسرع وأكبر خافرة اقتنتها الإدارة العامة للحرس المدني الإسباني، لمواجهة الهجرة السرية وتهريب المخدرات بمنطقة حوض بوغاز جبل طارق، والمحدد بحريا وجغرافياً بين سبتة السليبية والجزيرة الخضراء وطريفه وجبل طارق ومنطقة القصر الصغير وطنجة وأصيلة.

الآن يستحضر المغاربة أجزاء من تاريخهم بفتح ملفات سرية من خلال إفادات سياسيين ومعارضين سابقين ومتورطين في محاولتين انقلابيتين للاطاحة بنظام الملك الراحل الحسن الثانى عامى ١٩٧١، ١٩٧٢ ونشطاء حقوق الإنسان للمرة الأولى عبر وسائل الإعلام الرسمية «إذاعة وتليفزيون». وسيتعرف المغاربة من خلال الوقائع المتلفزة إلى الأماكن التى ارتبطت فى الذاكرة المغربية بأنواع من التعذيب، ضمن ما يعرف فى المغرب بـ «سنوات الرصاص».

هذه الخطوة التى هدفها رد الاعتبار فى شكل عادل ومنصف لضحايا خروقات الماضى فى مجال حقوق الإنسان، يصفها الناشط الحقوقي «ادريس بن كبرى» الذى يرأس هيئة «الإنصاف والمصالحة» التى ترعى هذا التوجه، بأنها نموذج يحتذى كونه يعكس الإرادة السياسية القوية لطفى صفحة مؤلمة من الماضى وتحصين المجتمع ضد تكرار مثل هذه الخروقات.

بعد مشاركة باحثين وأكاديميين فى الجامعات المغربية وأطباء
نفسيين وعلماء اجتماع فى جلسات الاستماع إلى الإفادات والشهادات،
الأمر الذى سيضفى على الجلسات بعدا تربويا وإعلاميا يكرس لثقافة
حقوق الإنسان.. هل سيكف أنين الأمهات التكالى بعد أن يتسلمن
جثامين فلذات أكبادهن ويلقن عليها نظرة أخيرة قبل أن يُواروا تراب
الوطن المحبوب؟

وهل يكف الحكواتى الأمل العجوز فى ساحة جامع الفنا عن سرد
الحكايات عن الحلم الأوروبى وعن الذهب الذى يتدلى من أغصان
الأشجار فى أوروبا؟

«أغادير» مدينة البحر والجبل والذكريات

طائر

حديدي آخر صغير، يحلق بنا فوق «مراكش» وقمم جبال أطلس، ووسط سحب أبيض وسماء زرقاء مزركشة بزخارف البرتقال والبنفسج. داخل الطائرة المتجهة إلى «أغادير» مدينة البحر المحيط فسي جنوب غرب المغرب، تقدم لنا المضيقة الأمازيغية عصير البرتقال وابتسامة سخية تضيء وجهها الذي يذكرني بوجود «طارق ابن زياد» و«ابن بطوطة» و«ابن خلدون» من الأمازيغيين أصحاب الإسهامات العظيمة في الثقافة العربية والإسلامية.

صوت قائد طائرة الخطوط الداخلية يبلغنا أننا نحلق فوق «أغادير». أنظر من زجاج النافذة فأجد «أغادير» مدينة ناصعة البياض تستحم في ضياء الشمس، مستلقية في دلال على الرمال الذهبية لشاطئ البحر المحيط الممتد بطول عشرة كيلومترات، تتخللها غابات الصنوبر وأشجار الأركان وبساتين البرتقال والموز والزيتون.

منذ اللحظة الأولى لخروجنا من مطار «أغادير» وقبل أن نستقل الحافلة التي في انتظارنا تستقبلنا الموسيقى وأغنيات «الحيدوس» الأمازيغية. فتيات صغيرات ونساء يرتدين الملابس التقليدية الملونة المزركشة، ورجال يرتدون الجلابيب البيضاء وعلى رؤوسهم عمامات

بيضاء وينشدون الأغنيات على وقع الدق على البندير والنفخ فى المزمار والتصفيق بالأيدى.

«حسن أبو الطيب» المرشد السياحى الأمازيغى الذى يرافقنا ويتحدث إلينا باللغتين العربية والفرنسية، يرفض استعمال تعبير «بربر» الذى أطلقه اليونانيون على الشعوب التى كانوا يرونها دونهم فى الحضارة، مثلما أطلقوه على أمة الطليان عندما قاموا بغزوها وكان أن حذا الطليان «الرومان» حذو اليونانيين وأطلقوا اسم «بربرى» على كل من ليس إيطاليا.

الأمازيغ، أقدم سكان المغرب، الذين نزحوا لأسباب جيولوجية وسياسية من ديارهم فى اليمن والجزيرة العربية، وعبروا مصر إلى ليبيا ليستقروا فى الشمال الأفريقى قبل الإسلام، من الخطأ اعتبارهم أقلية عرقية، لأن الثابت هو أنهم الأغلبية الساحقة، لأن عدد العرب الذين جاءوا مع الفتح الإسلامى لم يكن يتجاوز عدة آلاف، وهذا العدد لا يكفى لتكوين أغلبية عرقية، حتى لو أضيف لهم «بنو هلال» الذين قدموا إلى شمال أفريقيا من المشرق العربى.

فى رأى الباحث الجزائرى «موسى شاكر» أن الخلط بين الأمازيغية، كمفهوم عرقى، والأمازيغية، كترات ثقافى، أدى إلى المغالطة التى شوشت تفكير عدد من مثقفى شمال أفريقيا، والتى تكفل الاستعمار الفرنسى بتأجيلها وتحويل الاختلاف إلى خلاف ثم إلى ما يشبه العدا.

ها هي ذى «أغادير» أمامى وقد خرجت من تحت الأنقاض، مدينة جديدة بيضاء، بالقرب من حطام المدينة القديمة، الذى لا يزال فى مكانه، حتى لا يغيب عن ذاكرة المدينة وناسها.

الزلازال الذى ألم بمدينة «أغادير» فى عام ١٩٦٠ وحولها إلى ركام من الأنقاض، هل أفقدها جزءاً من ذاكرتها وأفقد البعض من أبنائها ذاكرتهم؟ أو أن هناك فى «أغادير» من حاول جاهداً التشبث بذاكرتها وذاكرياتها؟

«أغادير» الجديدة مدينة ناصعة البياض فى فضاء ملون، تهب نفسها للبحر وللسموات الأجنبية ويهرع إليها عشاق الشمس والشاطئ والرمال الذهبية الناعمة ومياه البحر المحيط، القادمون من بلاد الشمال البارد. فى المدينة الجديدة البيضاء «أغادير» الذكريات متوفرة إلا أن الاتجار بها راج بعض الشيء، كما يرى الروائى المغربى «الطاهر بن جلون». قرار تشييد مدينة «أغادير» الجديدة هل كان قراراً منفرداً اتخذه عقل المغرب دون أن يستشير فيه القلب العاطفى للبلاد؟ «أغادير» الجديدة.. البيضاء، التى تفتقد شوارعها ونواصيها إلى ماضٍ وذاكرات هل أحيطت علماً عند بنائها برغبات ساكنى جبال أطلس القريبة والصحراء، أو أنها جسدت الصورة الحلم التى يتعين أن تكون عليها مدينة للبحر المحيط تقدم المتعة وتبيع الذكريات؟.

أمام نموذج حى لمدينة عتيقة بأسواقها وبيوتها ومساجدها ومقاهيها ومدارسها، أتوقف وأسأل نفسى: هل هو توق القلب العاطفى للمغرب

إلى التشبث بذاكرة المدينة القديمة وذكرياتها؟. غناء ورقص أمازيغي، وفتيات أمازيغيات في ملابسهن التقليدية أمام عربات خشبية تحمل برتقالاً، يقمن بعصره بعصارة يدوية ويقدمنه هنيئاً مريئاً للزائرين. سجاجيد «زرابي» مغربية من النوع الرباطي والفاسي، وأخرى أمازيغية مختلفة في الشكل الهندسي واللون وعدد العقد، منها زُرْبِيَّة الأطلس الكبير، وزربية شيشاوة. أينما أول وجهي في المدينة العتيقة النموذج الحيّ أو أنماطاً معمارية تحمل تقاليد الماضي وعبقه وسمات بيئة الجنوب المغربي. هذا نمط من البناء القروي المزين والمزخرف في الأودية المتاخمة للصحراء يذكر بالقصبات والقصور القديمة التي شهدت انهياراً منذ زمن الاحتلال الفرنسي.

الرحلة إلى أعلى الجبل قطعها الحافلة في حوالي ربع الساعة. هنا في الأعلى أطلال قلعة قديمة تشهد على حقبة من تاريخ صراع دموى طويل، وفي الأسفل أطلال «أغادير» القديمة التي لا تبعد كثيراً عن «أغادير» الجديدة الغارقة في البياض، والمستلقية في كسل تحت أشعة الشمس على شاطئ البحر المحيط. وهناك في البعيد سلاسل جبال أطلس ووديان وسهول وصحراء وعيون وقبائل عربية وأمازيغية امتزجت دماؤها عبر القرون.

هنا في أعلى جبال أطلس، وأطلال القلعة القديمة من خلفي، وأطلال «أغادير» القديمة من أسفل، وصوت الريح في أذني، أرى «أغادير» الجديدة البيضاء، ابنة البحر المحيط تحت أشعة الشمس الذهبية،

عقداً من الماس يطوق عنق الجبل ويزين جبين البحر، وأراني وقد
وليت وجهي في اتجاه صوت الموسيقى على خلفية المنظر الطبيعي
وقوس قزح.

صخور الجبل التي ترق لأعواد الزهر فتغدق عليها بالحنان والرعاية،
ها هي ذى قد هيأت لأغادير الجميلة الشابة - التي تنظر إلى جسدها في
مرآة البحر المحيط كل صباح في زهو - منصة حجرية منبسطة وسط
المنظر الطبيعي لتقيم عليها عرضاً للأزياء بصحبة الموسيقى.

فتيات مغربيات في عمر الزهور، هن مزيج من عرب المشرق
وأمازيغ المغرب وأفارقة الشمال، وقد لوحت وجوههن الشمس. تخطر
الجميلة المغربية منهن، كغزالة قادمة تواء من الصحراء، على المنصة
الحجرية المغطاة بقطع من السجاد ذات أشكال وورود وألوان بهيجة.
هذا عرض مختلف للأزياء أقرب إلى لوحات تشكيلية تتوالى واحدة
بعد أخرى. تنصدر عارضة الأزياء المغربية الجميلة الرشيقة بقوامها
الفارع، وثوبها المغربي القشيب مقدمة اللوحة التي تتشكل خلفيتها
من سلاسل جبال أطلس والأزرق المطرز بالورود في السماء، والفضة
في مياه البحر المحيط، وذهب أشعة الشمس المنتور على الموج والرمال
والبيوت البيضاء وبساتين البرتقال في البعيد.

إنها الموسيقى المرحية الصافية وإنه لسلطانها الخفي الذي أتى بغزالة
من الصحراء لكي تخطر أمامنا بثوبها المغربي البهيج في أعلى الجبل،
والذي أتى بي أنا من ضفاف نيل جنوب مصر.

نغمة موسيقية ترافق كل غزالة عارضة، وتوافق خطوط ثوبها ونسيجه ولونه وتطريزه. «القفطان» من الحرير أو الساتان الذهبى، ترتديه المرأة المغربية فى الحفلات والمناسبات العامة وترتدى فوقه «الدفينة» وهو ثوب فضفاض مفتوح من الجانبين ومن الأمام، ومطرز بتطريز يعرف بالصقلى. ومكملات القفطان، الحزام الذهبى بأشكاله المتنوعة والمعروف باسم «المضمة» ويكون عادة من الذهب الخالص. ومن الحلّى المرافقة للقفطان عقد من الذهب أو اللؤلؤ. وقد ترتدى المرأة المغربية تحت القفطان ثوباً خفيفاً من القطن يسمى «تشمير» وقد ترتدى أيضاً السروال التقليدى الذى يصل إلى ما تحت الركبة ويكون فضفاضاً ومطرزاً.

«الجنسدورة زى» مكون من قطعة واحدة مطرز بخيوط فضية أو ذهبية أو حريرية فى الصدر والفتحات الجانبية والأكمام، وترتديه المرأة فى المغرب عادة عند استقبال الضيوف وزيارة الأصدقاء.

«التقشيطة» ثوب من الحرير مكوّن من قطعتين ومطرز بأشكال هندسية، وترتديه المرأة المغربية فى حفلات الاستقبال والعرس. أشهر أنواعه «المخزنية» ويتميز برحابة الكم وانسداله، ويتسم أيضاً بتطريزاته الذهبية. و«القشابة» ثوب تقليدى ترتديه المرأة فى الزيارات وعادة ما يكون بغير حزام وله ياقة عريضة.